(٤) المذهب التكاملي :

عرضنا حتى الآن الى ثلاثة من مناهج النقد الأدبي ، هي : المنهجُ الفنيُّ ، والمنهج التاريخيُّ ، والمنهج النفسيُّ . ولكن لا يزال هنـاك منهج رابع ، هو « المنهج التكامُلِيُّ » .

والمنهجُ التكامليُّ يتألف من المناهج الثلاثة السابقة ، ويستخدمها مجتمعـة متكاملة متداخلة كلما استدعى النقد ذلك . وعلى هذا فهو منهج مَرِنٌ لا يقف عند حدود معينة ، وإنمـا يأخذ من كل منهج ما يراه مُعِيناً على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميـع جوانبها .

ولعل « المنهج الفني » هو أقربُ مناهج النقد الأدبي الى طبيعة العمل الأدبي، ويكاد يكون بذاته منهجاً متكامـلا ، لأنه مزيج من المنهج التأثري ، والمنهج التقريري ، والمنهج النفسي . ولكنه مع ذلك يظل بحاجـة إلى المنهج التاريخي والمنهج النفسي ، لأن كلاً من الملاحظة التاريخية والملاحظة النفسية عنصر ضروري في بعض جوانبه .

وكلُّ منهجٍ من مناهج النقد الأدبي هو في حقيقته حصيلةُ تجارب النقـاد وممارستِهم لعملية النقد خلال عصور طويلة . واستخدامُ هذه المناهج مفيد من قِبَل النقاد طالما نظروا إليها على أنها أضواء كاشفة على طريق النقـد . أما إذا نظروا إليها على أنها قواعدُ وقوانينُ واجبةُ الاتباع فإن ضررَها يكون أكثرَ من نفعها على النقد والناقد .

أما ضررُها على النقد فيتمثل في أنها تُفسده وتَخنقه وتقضي على روحـه ، وبالتالي تؤثر في الأدب وتحاول أن تفرض عليه ما ليس في طبيعته ، وتتحكم في حريته وانطلاقاته التي هي مصدر إبداعه وابتكاراته .

وأما ضررُها على الناقد فيتمثل في أن تَقيُّدَه بأصول هذه المناهج وحدودِها من شأنه أن يجعلَه عبداً لها ، وأن يُضعفَ من شخصية الناقد فيه ، وأن يُجمِّدَ

نشاطه الخلاّق ، وأن يحُدّ من روح التجديد والابتكار عنده ، تلك الروح التي تُعينه على أن يضيفَ جديداً الى التراث النقدي .

وبعد ... فقد أشرنا في عرضنا السابق الى أن كلاً من « المنهج الفني » و « المنهج التاريخي » و « المنهج النفسي » لم يسلم من قصور ومآخذَ ، ومن هنا تبدو قيمة « المنهج التكاملي » في تلافي هـذا النقص . فهو كما ذكرنا منهجٌ مَرِن يتناول الأعمالَ الأدبية من كل نواحيها ويتناول أصحابَها كذلك ، ويستمد من أصول المناهج الأخرى وعناصرها كلّ ما يراه مناسباً وضرورياً ، وبذلك يخرج النقدُ لأي عمل أدبي على صورة أتمّ وأشمل ..

ومما يُلاحَظ على النقد العربي الحديث أنه كثيراً ما يسلك طريق « المنهج التكاملي الذي يضم في ثناياه أهم مزايا المناهج الأخرى ...